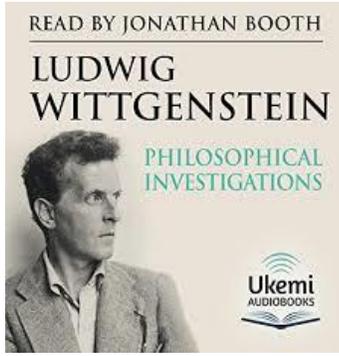


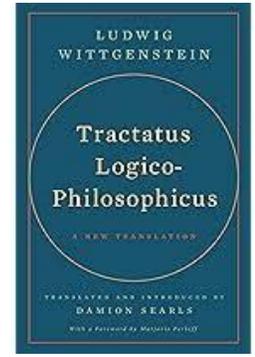


الحصة الرابعة

اليومي واللغة العادية: فتغذيتان



الموقف من اللغة



يتعلق الأمر في هذه الحصة بدراسة موقف فتغنشتاين من اللغة العادية واستعمالاتها في اليومي، ونخص هنا بالذكر «فتغنشتاين الثاني» الذي طور فلسفته بناءً على رؤية تداولية (pragmatique) ابتداءً من «بحوث فلسفية»، وليس الرؤية المنطقية (logique) كما انبرت في «رسالة منطقية فلسفية». في الشق الثاني من فلسفته نجد تنوعاً في الرؤية وسلاسة في العرض، خلافاً للرسالة التي جاءت جافة نوعاً ما، كانت تُعبر في البدء ومبدئياً عن النزوع الزهيد لدى فتغنشتاين. في مشروع «بحوث فلسفية» وأيضاً «النحو الفلسفي»، هناك انفتاح على الممارسات غير اللغوية بالإشارة إلى السياق، والاستعمال، والإطار الثقافي واليومي الذي تتمظهر فيه المقولات والقضايا المنطقية وتشتغل بناءً على معقولة عملية.

الممارسة اللغوية ممارسة ثقافية



الدراسات التي تعتبر فتغنشتاين فيلسوفاً للثقافة لا حصر لها؛ نعني بذلك الدراسات التي رأت في المعجم الفلسفي لديه قراءة في اليومي بوصفه تجلٍّ من تجليات الثقافة الإنسانية. لأنَّ المعجم الفلسفي سليل الفلسفة الثانية زانر بالإشارة إلى اليومي وإلى الثقافة عموماً، عبر مصطلحات اللغة العادية، وشكل الحياة، واللعبة اللغوية، والشبه العائلي، والأدوات، والاستعمال، والممارسة، والحس المشترك، إلخ. يكفي أن نقرأ فقرات عديدة من نصوص الفلسفة الثانية لتتوقف عند قراءة وصفية وتحليلية لنمط الممارسة اليومية للغة والممارسة اللغوية للحياة اليومية. سنعمل في هذه الحصة على شرح أهم الفقرات المستخلصة من كتابات الفلسفة الثانية ونستدل بها على اهتمام فلسفي بارز لطريقة اشتغال اليومي وانتظامه وفق قواعد وممارسات.



تَدَاوُلِيَّةُ اللُّغَةِ

أول شيء يثير الانتباه هو الأهمية التي يوليها للغة من حيث كونها ممارسة أداتية وأدائية في الوقت نفسه. نقصد «الأداة» وهي الكلمات، ونقصد «الأداء» وهو الإنجاز العملي. هذا بارز إذا علمنا أن النزوع المتأخر لفتغنشتاين كان تداولياً أي البحث في شروط الاستعمال ونظام الممارسة اللغوية. يُقدّم لنا جاك بوفرس دليلاً من خلال عمله تحت عنوان «أسطورة الباطنية: التجربة، والدلالة، واللغة الخاصة عند فتغنشتاين»، الأمر الأساس في الدلالة أنها تشير إلى شيء ولا تستدل بقصدية عميقة، إلى درجة أن الفقرة 66 من «بحوث فلسفية» جاءت بصيغة الأمر: «لا تفكر، بل أنظر!».

المَعْنَى هُوَ الِاسْتِعْمَالُ



«أليست الدلالة هي استعمال الكلمة؟ أليست هي الطريقة التي يتدخل فيها الاستعمال في الحياة؟ لكن أليس استعمال الكلمة هو جزء من حياتنا؟ [...] نتدخل أيضًا في حياتي. وما نسميه "اللغة" هو كيان مرَّكَّب من عناصر متنافرة، والطريقة التي يتدخل بها في حياتي هي متعدّدة بشكل لانهائي» (النحو الفلسفي، فقرة 29).

يختزل الدلالة في الاستعمال وروى جلبرت رايل (G. Ryle) عنه قوله: «لا تَسألَ عَنَ المَعْنَى، اسألَ عَنِ الِاسْتِعْمَالِ» (Dont' ask for the meaning; ask for the use)، يأتي اليومي في جوهره على أنه استعمال (usage) في الكلمات والأشياء. يستعمل الأفراد اللغة في المبادلات اليومية في صيغة أوامر أو مطالب مثل «ناولني هذا الشيء» أو أيضًا تقارير وأمنيات. لا تتخذ الكلمة هنا دلالتها في صدق القضية بأن تنطبق مع الواقع، وإنما في طريقة استعمالها والوظائف التي تشغلها في سياق التداول.



فقه الاستعمال

ليس الاستعمال مجرد سلوك ميكانيكي في أداء شيء، إنه تجلّ من تجليات الحياة، في كون الإنسان مجبول على الاستعمال، مثلما يستعمل الحيوان طبيعياً المنقار أو المخالب أو الجناحين. من طبيعته أن يستعمل ضرورياً وغريزياً هذه الآلات العضوية. من طبيعة الإنسان كذلك أنه كائن استعمالي: يستعمل الأدوات، ويستعمل أيضاً اللغة، والعقل، والإرادة وكل الملكات التي يميّز بها عن الحيوان. «اللغة هي مجموعة من الأدوات المختلفة. نجد في هذه العلبة مطرقة، ومنشار، ومسطرة، ومسبار، ووعاء الغراء، والغراء. هناك العديد من الأدوات تماثل في الشكل والأداء» (النحو الفلسفي، فقرة (31).

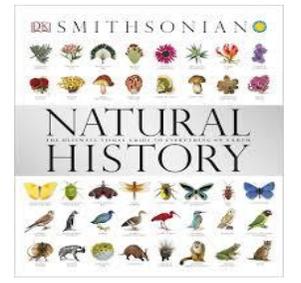
شَكل أو أسلوب الحياة

بعدهما برهن فتغنشتاين على أن اللغة هي مجموعة من الاستعمالات في سياقات خاصة للحصول على الدلالة، قام بربط اللغة واستعمالاتها بما يُسميه «شكل أو أسلوب الحياة» (Lebensform). يُحيل هذا المفهوم إلى مجموع التقاليد والاستعمالات والممارسات والمعتقدات والآراء التي تُتميز مجتمعاً. لكن لا تُختزل فقط في هذا البُعد «الثقافي» من الاتفاق الاجتماعي والتعايش، بل تحيل أيضاً إلى البُعد «الطبيعي»، ويأتي هذا البُعد الطبيعي في الاستعداد الفردي على الربط بين اللُعب اللغوية أو «المفاتيح اللغوية» و«شكل الحياة»، إذا علمنا بأنَّ ما يُسميه فتغنشتاين بـ«اللعبة اللغوية» هو السياق الذي تُستعمل فيه الكلمة لأداء دورٍ خاص (مثل المطرقة أو المنشار)؛ إنَّ دلالتها هي تداولية تخصُّ السياق والظرف والعلاقة بين الكلمات الأخرى.



اللُّغَةُ وَالْحَيَاةُ

هذا يُفسَّر قول فتغنشتاين «التعبير بلغة ينتمي إلى نشاط أو إلى شكل الحياة» («أبحاث فلسفية»،
فقرة 23)؛ أي أنَّ التعبير بلغة هو ممارسة من حيث أنَّ دلالة الكلمات هي استعمالها في السياق؛
هي ممارستها كما نتناول المطرقة والمنشار من أجل وظائف محدَّدة. وعندما يُقرَّر بأنَّ «تمثُّل اللغة معناه
تمثُّل شكل الحياة» («أبحاث فلسفية»، فقرة 19)، فإنه يعتبر أنَّ اللغة متجذِّرة في التمثُّل البشري
وأنَّ الكلمات ترتبط طبيعياً وثقافياً بالبيئة التي تواجدت بها. عندما نتعلَّم لغة أجنبية مثلاً، فإنَّنا نتعلَّم
النَّحو، والمعجم، وطريقة الكلام، والفهم، نتعلَّم لغة نموذجية، لكن نعجز عن فقه بعض التعابير
الاصطلاحية الحيَّة (idioms) التي تُعبِّر عنها اللهجة، خصوصاً في التبادل الشفهي.



اليومي في أفق التاريخ الطبيعي

يُشَدُّ فتغنشتاين على أنَّ التعبير اليومي في استعمالاته التداولية الحيَّة، ليس فقط مسألة «ثقافة» من حيث التقاليد المكتسبة والموروثة جيلاً عن جيل، ولكن أيضاً مسألة «طبيعة» من حيث الاستعدادات الوراثية والموهوبة التي تبرز درجة من العبقرية التي تميَّز بها اللغة. هذا يُفسَّر الاقتباس الموالي: «الأمر، التساؤل، السرد، الدردشة، تنتمي كلها إلى تاريخنا الطبيعي، مثلها مثل المشي، الأكل، الشرب، اللعب» (RP, § 25). المشي والأكل والشرب والنوم هي كلها حاجات طبيعية لدى الإنسان، واللغة من منظور فتغنشتاين تنتمي هي الأخرى إلى ما يسميه بـ«التاريخ الطبيعي»، فتصبح الأوامر والاستفهامات والسرديات والدردشات كلها حاجات طبيعية أيضاً، وليس فقط مخلفات ثقافية لمجتمعٍ من المجتمعات.



تَجْدُرُ اللُّغَةُ فِي الْحَيَاةِ

لرَبِّمَا «الإيماء» (mimique)، أي حركة اليدين والوجه، يُعَبَّرُ بالفعل عن السلوك الطبيعي للغة. التعبير في حالة الفرح غير التعبير في حالة الحزن أو الغضب، لأنَّ هذه الردود في الأفعال، فرحاً أم حزناً أم غضباً، تُعَبَّرُ عن انفعالات كامنة في الإنسان، وهي جذور طبيعية بالدرجة الأولى. التعبير في حالة الفرح ينجرُّ عنه ظاهرة طبيعية في الانشراح والابتسام، بينما التعبير في حالة الغضب ينجرُّ عنه حالة طبيعية هي الانقباض واحمرار الوجه وارتجاف المفاصل، إلخ. حاول فتغنشتاين أن يبيِّن مدى تجدُّر اللغة في الحياة، ولأنَّ الحديث عن «شكل الحياة» هو الإشارة إلى التاريخ الطبيعي للغة، كونها أصواتاً وحركات فيزيولوجية علاوةً على الانفعالات المصاحبة لها، وليس فقط تشكُّلات ثقافية في شكل معاجم، ومنظومات معرفية وعلمية هي حصيلة خطابات، ونصوص، ودلالات.

أمراض الفيلسوف



لكن لماذا يفرُّ الفيلسوف من الواقع اليومي ويهجره نحو سماء التجريد والنظر الخالص؟ وهل لأنه يبحث عن المستقرِّ المفهومي والواقع اليومي يفلتُ منه بحكم الحركة المتسارعة والتحوُّل المستمرِّ الذي يميِّز به؟ بالنسبة لفتغنشتاين، مشكلة الفيلسوف مع اليومي ليست فقط في الطبيعة المنفلتة لهذا اليومي، وإنما هي مشكلة كامنة في الفيلسوف نفسه، وهو أنه مصاب برُهاب اليومي ويعاني من العلل التي تحول دون فهمه المباشر للواقع اليومي. يقول بشأن ذلك: «الفيلسوف هو شخص على عاتقه أن يشفى من الأمراض المختلفة للفهم قبل أن يبلغ المفاهيم الخالصة للحس المشترك» («ملاحظات مختلطة»، ص 44).



العِلَاجِيَّاتُ الفَلَسَفِيَّةُ

على عاتق الفيلسوف أن يشفى من هذه العلل التي هي حوائل دون الرجوع إلى التربة الطبيعية للغة الفلسفية. اللجوء إلى الاستعارة العلاجية بارزة عند فتغنشتاين وخصص لها جون غرايش فصلاً كاملاً ضمن محاولة تنزع كلها نحو تبيان البُعد العلاجي للطب الفلسفي في التاريخ الفكري الغربي. تُفسّر رولا يونس المسألة بهذه الكلمات: «بالنسبة لفتغنشتاين، هذا البحث عن الجوهر [في قوله «ويعملون على استخلاص جوهر الشيء المعني»] هو في أصل "المرض الفلسفي" الذي ينبغي التعافي منه بالعودة إلى "الأرضية الوعرة" وبأن يرى بدلاً من أن يفكر» (مقدمة في فتغنشتاين، ص 74).

النَّظْرُ قَبْلَ التَّفْكِيرِ



بهذا المعنى، يدعو فتغنشتاين الفيلسوف أن يتعلَّم «النظر» قبل «التفكير»، أن يتعلَّم كيف يرى الأشياء التي أمامه، أشياء بسيطة ويومية، ويكتفي بوصفها وتبيان أبعادها وشبكة العلاقات فيما بينها. من شأن التفكير أن يُبعده عن «الأرضية الوعرة» والعتبة الأولية للحياة اليومية، لأنه يقوم بالسُّموُّ بها إلى علياء الميتافيزيقا، فيقوم بقطع الكلمات الحية عن منبتها اليومي ويرتقي بها إلى التجريد، فتبدل في الطبيعة وتلج في الغموض وتفتقر إلى الإيضاح والبداهة: «عندما نتفلسف، فإننا نشبه المتوحشين أو البدائين الذي يسمعون تعابير الأشخاص المتحضرين، ويفسرونها باعوجاج، ويستخلصون من تأويلاتهم النتائج الأكثر غرابة» («أبحاث فلسفية»، فقرة 194). هكذا يُشبه فتغنشتاين الفيلسوف بالمتوحش أو البدائي الذي لا يفقه كلمات المتحضرين، بل يقوم بتعظيمها ويضفي الغموض والغرابة عليها.